إفلاس

كان « محسن العتر » ملقى على فراشه فى حجرته الخربة يعانى تباريح الإفلاس والعسر .

لقد أقفر جيبه إلا من قروش عشرين ، هى الصفوة المتخلفة من الجنيهات العشرة التى يتقاضاها من عمله الحكومى فى خاتمة كل شهر .

كان ممدوداً على سريره فى خمول ، يتجرع على مضض كأس السأم ، إذ حبس نفسه فى ذلك القمقم المعتم ، موفراً على جيبه نفقات لهوه التى تمتص القدر الأوفر من دخله الضئيل.

إن الليالى كانت تمر عليه وكأنها قرون طوال ، بل كأنها كابوس جاثم يتمثل فيه حطام حياته الخاوية .

وتقلب على الفراش يشعل لفافة تبغ ؛ وما لبث أن انسرح يعب أنفاسها مليًّا ، يجاهد يائساً أن يعيد السكينة إلى نفسه الحائرة.

ولما لم يفلح ، صدف عن مضجعه يذرع حجرته فى خطا متخلعة ، كارهاً أن يكون ذلك القمقم العفن مجاله الأوحد

الذى يستند إليه ويتنفس فيه أنفاس الحياة .

إنه يختنق . . . وإنه ليحس روحه تحتدم بين جنبيه ، وتحثه على توثب وانطلاق فى رحاب من اللهو عراض .

فوق مقدوره أن يحجب عن أنظاره بعد الساعة ما فى الدنيا الواسعة من مباهج وألطاف .

وتفلتت منه نظرة إلى الحارة وهو عن كثب من النافذة فألفاها تمور بالحركة وتمرح فى الأضواء .

وما عتم أن تراءت له فى أقصى الحارة قهوة « السرور والأمل » أكثر ما تكون إغراء ، فقد تدلى من جبينها مصباح نفط يتوهج ، وقد أخذ فى زهو يبعثر بسماته المشرقة يمنة ويسرة كلما هزته خطرات النسيم .

ولم تكن أذناه بأدنى حظًّا من ناظريه ، فقد ترسلت عليهما أنغام شجية ، من مذياع القهوة ، فحركت فى نفسه كوامن المشاعر ، فانبعث ينقر حافة النافذة بأصابعه لاهياً يساير الإيقاع .

ومثل العتر يتمطى باسطاً أوصاله الخاملة ، وقد فرطت منه تثاؤبة عميقة كأنما تزيح عنه التبلد والجمود .

ماذا يضيره إن انغمس فى غمار هذا النشاط البهيج ؟

قدح القهوة لن يبتز من جيبه إلا قرشاً ، وإن تمادى فى عبثه فقرش آخر يؤديه لقاء لعبة النرد .

ومن يدرى ؟ ربما يعلو حظه فيربح من المراهنة عوض ما يدفع فى القهوة شهراً أو يزيد .

وما هى إلا أن زايل قمقمه وخرج إلى الشارع يلتقى بالحياة فتترنح أعطافه ترنح الرضا والاستبشار .

وكلما نشطت خطاه تدانيه من القهوة توضحت له عامرة الأرجاء يسودها نشاط متجدد .

أين هى من حجرته المتفردة وقد لفظها البيت على سطحه نائياً بها عن أطايب العيش .

القهوة ولا جدل هينة المنظر ، شرقة الجدران بأبخرة لفائف التبغ والنراجيل تتعقد فى سمائها كغمامات زرقاء .

وهى فوق هذا مجتمع أسقاط الحارة من الشبان المتسكعين يختلفون إليها ما غابت الشمس وسجا الليل ، لا مشغلة لهم إلا المشاكسة والشجار ، وقد تتعالى أصواتهم جهورية الجرس لا تحسن إلا التفوه بالمتهافت من القول والتافه من الحديث .

ما كان « لمحسن العتر » أن يلجأ إلى مثل هذا المنتدى الرخيص لو أن جيبه المفلس عامر بجنيهاته العشرة .

أما يكفيه الليلة أن يأنس بذلك المذياع وهو يغرد تغريده المأنوس والسمار من حوله يرددون الآهات كلماهب عليهم نغم حنون .

أما يكفيه منظر خادم القهوة وهو يخب فى أطماره البالية يخوض طريقه بين المناضد ، يجيب هذا إلى مطلبه وينحنى على ذلك يسأله ما يطلب ، وإذا ما رفع عقيرته بالطلبات ، مطط حروف كلماته فى ترنيم يلذ للأسماع .

أما تكفيه هيئة المعلم «سرور» صاحب القهوة وهو مستديك على مقعده كالصقر المجنح يتابع غلامه فى بالغ من الحرص محصياً عليه الحركة ، وقد استوت أمامه النارجيلة تتوهج على رأسها الأغبر قطع الجمر كلما جذب إلى صدره منها نفساً ، وكرشه المنتفخة تترنح على فخذيه فى بدانة وترهل .

كل ما فى القهوة يدخل عليه الرضا والسرور .

وجلس « العتر » يشغل نفسه بجريدة مسائية أهملها أحد السمار بعد أن اشتف منها عصارة الأخبار ، فألقى بها حيث هى على المنضدة ورحل .

وتناولها صاحبنا يقلب صفحاتها ملولاً ، وعيناه تتواثبان على عناوينها البارزة دون أن يشغل باله بخبايا السطور ، حتى

تعثرت آخر المطاف بعنوان ضخم لقصة أثارت فضوله، وألهبت فيه حماسة القراءة ، إذ كان ممن يستهويهم الأدب وخاصة القصصى منه ، وفوق ذلك فصاحب القصة علم من أعلامها ، وخدين له ، درسا فى مدرسة مشتركة وهما فى ميعة الشباب .

لقد حمل كل من الزميلين لصاحبه ذكريات مشحونة بحقد وبغضاء ، لما نبت بينهما من تنافس على قلب امرأة : فتاة من فتيات الليل لا ضمير لها ولا قلب ، تهب حبها عطية ميسورة لمن يغدق عليها المال فى سماحة وسخاء .

ظفر بها العتر على منافسه الأديب .

لم تكن الحيلة تعوزه .

إن أباه من هواة التحف الأصلاء، له منها مجموعة فريدة تتناقل حديثها المحافل والمجتمعات .

وامتدت يد « العتر » تعبث بها ، فكان ينفق على غانيته ندىّ الكف بما يتوفر له من مال أبيه المسلوب .

ولما افتضح أمره طرده أبوه من المنزل يمسك عنه ويضن عليه ، فتقطعت به سبل العيش، وتنكرت له الغانية ، وناصبته العداء .

وها هو ذا يصبح تافه الشأن مطمور السيرة يتكسب فى غير يسر .

ونشط « محسن العتر » يقرأ الصحيفة وعلى فمه تتموج بسمة شاحبة تنم عن حفيظة وغيظ . إن القصة تفيض بالأحداث المثيرة والمواقف العنيفة فى أسلوب شائق ، وحبكة فنية وخيال خصب ، وسمو من تفكير .

وصفق « العتر » يطلب قدح قهوة ثم أشعل لفافة تبغ ، واسترخى فى جلسته يتابع المطالعة .

وألفى « العتر » نفسه وسط زوبعة عارمة ، فريسة لغضب جامح ، وثورة عمياء .

تبين له أن صديقه الأديب قد عرج على الماضى يستخرج الحوادث السوالف من لفائفها ينمق بها قصته .

لقد أطلق اسمه على الشخصية الأولى كاملا دون تبديل أو تعديل ، ووصفها بكل مرذول من النعوت ، فهى دنيئة المنبت ، خبيثة المقصد ، منطوية على شر .

وتململ « العتر » فى جلسته يعض على نواجذه .

كيف يزج باسمه فى قصة محورها الأول والأخير جريمة غش وخداع وتزوير ؟

هل ابتغى صديقه الأديب أن ينتقم منه معيداً إلى الحياة ما أسدلت عليه أستار النسيان ؟

كرامته أهدرت لا ريب . . . أهدرت على نحو مبتذل لا يرتضيه حر .

لا أقل من أن يثور لشرفه المسفوح ، وكرامته الجريح .

وطوى الجريدة يدسها فى جيبه وفى نفسه عزم على قصاص .

ولمعت فى رأسه فكرة .

عليه بصديقه القزم « سعدون » وكيل المحامى . . . لا مرية أنه واجد عنده السلاح القاتل الذى يبحث عنه .

عليه به دون إبطاء ، وإن كانت الصلة بينهما قد انقطعت منذ وقت سلف ، إثر شجار هب بينهما ، كالإعصار الجارف ، وهما يلعبان الورق ذات ليلة .

لقد تبين لـ « سعدون » أن صديقه « العتر » يخفى فى كمه بعض الورق ، فإن خذله الحظ ولاحت الخسارة والهزيمة ، استجدى كمه يطلب منه العون والتعويض .

تبين لـ «سعدون» أن صديقه مخادع محتال ... لص غشاش .

لم يتمالك « سعدون » فنعت « العتر » بالمخادعة واللصوصية على مرأى ومسمع من الأشهاد فى صوت جهير كأنه هزيم الرعود .

وزجره « العتر » فلم يمتثل بل تمادى يلعن ويسب فى جرأة وحماس .

وتظاهر «العتر» بالثورة دفاعاً عن شرفه ، وسرعان ما نشب بينهما شجار .

وشيع « العتر » القهوة فى تلك الليلة المشئومة متورم الأنف ، تظل إحدى عينيه غمامة زرقاء .

صدف « العتر » عن قهوة « السرور والأمل » تهديه قدماه إلى حارة متربة غير ممهودة بحى القلعة ، وصعدت به أربع طبقات إلى حجرة تشبه الجحرمن منزل متوحد يشرف على خرائب ثلاث .

ومد ساعده إلى الباب ينقر عليه فى رفق ، ولما لم يُجب إلى ندائه احتدّ فى طرقه حتى وضح له من خلف الباب الزجاجى شبح « سعدون » قادماً مترنح الخطو : عود متقاصر ، وظهر مقوس يحمل بين كتفيه حدبة كأنها سنام بعير ، وقد أمسك«ساهرة» عكرة الضوء، فيهاشمعة تترنح ذبالتها من ضعف.

وانفرج الباب .

وتواجه الصديقان .

فعجل « سعدون » إلى مصراع الباب يوصده ، لولا أن مد « العتر » قدمه يحول بين « سعدون » وما يريد .

وزأر القزم فى توقح يقول :

ماذا تبغى . . . ليس لك مكان هنا . . . انصرف . . . ما بيننا انتهى . . . قطع إلى الأبد .

ولاح « للعتر » أن صديقه القزم مخمور تتلاعب برأسه الصهباء ، فاستبشر خيراً ، وواجهه فى مسكنه يقول :

ــ ألا تمد يد العون إلى صديق مأزوم ... فى حاجة إليك ؟

ــ لا يهمنى . . ليس ثمة صداقة تربط بيننا .

ــ ألا تغفر له إساءته لك .

ــ لست الله لأغفر الذنب .

ــ وإن أتاك تائباً يطلب عندك العفو والصفح .

ــ الله وحده صاحب العفو .

ــ ألا تتذكر العيش والملح الذى تقاسمناه وأكلناه معاً ..

ــ أتذكر أنك خذلتنى . . خدعتنى . .غررت بى . . . سلبت مالى . . . كفانى هذا القدر .

وترنح « سعدون » فى وقفته وأوشك أن يتهاوى ، فخف « العتر » إليه يسنده ، وتناول منه «الساهرة» كيلا تندلق فتندلع منها النار .

لم يكن بالحجرة أثاث إلا متكأ من الخشب هزيل ، ومقعد تفسخت قوائمه وانتفشت حواشيه ، فاتخذه « العتر » لنفسه

مقاماً ، مخلياً المتكأ لصديقه القزم .

ولما استوى « سعدون » فى مكانه ، واطمأن فى جلسته ، انبعث يبحث عن زجاجة الخمر ، وأقامها إلى فمه يعب منها ثم قدمها إلى صديقه « العتر » الذى كرع منها كرعة مديدة ، فلما أحس بوقدة الشراب تسرى فى أوصاله ، أرجعها إلى صديقه القزم .

ولما ألفاها « سعدون » فارغة شهرها فى وجه صديقه وهو يجمجم فى صوته المخمور :

سوف أحطمها على رأسك وأنتهى منك . . . ما الذى ساقك إلى هنا تعكر صفو أنسى . . . هيا ، عليك بالباب .

وغمغم « العتر » فى انكسار :

أهكذا يستقبل الصديق ؟!. . .

— دعنى لزجاجتى هذه . . . كلانا صديق للآخر . . . هيا . . . ارحل ؛ عجل وإلا هشمتها على رأسك .

لم ينبس « العتر » ، وقصد النافذة يفتح وصاوصها ، فغزا الحجرة نسيم تشيع فيه أنفاس المساء ، ثم قفل إلى صديقه يبسط الجريدة بين يديه ويلوك تلك الكلمات بين شدقيه :

هذه هى التى دفعتنى إليك . . . ثمة ثأر يؤخذ وشرف

يرد . . مسألة قانونية أود رأيك فيها .

ظل « سعدون » صامتاً كأنه يشحذ ذهنه مستوحياً الفكر .

كان رجلاً كريم الخلق ، صاحب مروءة وفضل ، إن هو استشير فى أمر نسى حقده وشمر عن ساعديه يسدى النصح .

كيف يبخل برأى على مأزوم ويأبى الدفاع عن مهزوم ؟

أليس المحامى فى ساحة العدل جندياً وهب نفسه ووقف علمه دفاعاً عن حق مهضوم .

وما « سعدون » القزم إلا ذلك الجندى الذى يساند العدالة ويساعد القانون وينصر الحق .

وبعد لأى انعطف على صديقه « العتر » يربت يده ويسر إليه قوله :

ما الوقائع . . . علىّ بها . . . اقتضب فى السرد . . . كن واضحاً . . . أبرز موضوعك دون إسراف فى قول . . . الاقتضاب خير دليل على الصدق .

وأذعن « العتر » لما أمر به ، وتناول قصته فى إيجاز ، و « سعدون » يسمع إليه بملء أذنيه .

فلما تزود بما أراد صدرت منه إشارة إلى صديقه يسكته .

وغاب صوت « العتر » وهو يردد قوله :

أكفاك ما سمعت ؟

ـ أوَتحسبنى غبيًّا لا أعى . . . حسبى منك إشارة أو تلميح كى ألمّ فى غمضة عين بخبيئة الأمر .

ـ ألست على حق . . . طمئنى حماك الله .

ـ التشهير واضح . . . سوء النية متوفر . . . خصمك فى قبضتنا . . دعواك حتماً رابحة . . . غداً أكتب عريضة الدعوى . . . وبعد غد أتقدم بها إلى القاضى أثأر لك وأقتص . . . سأنتزع منه الحكم الذى ترضاه فى الجلسة الأولى ولا ريب . . . عول علىّ . . . « سعدون » يعرف من أين تؤكل الكتف .

وهتف « العتر » وقد لعبت برأسه الخمر :

نعم المدافع أنت !

واعتدل « سعدون » يجيب صديقه مغمغماً :

لى شرط .

ـ شرطك مقبول على العين والرأس .

ـ ماذا يكون نصيبى ؟

ـ ماذا تعنى ؟

ـ الأتعاب !

ـ لك ما شئت . . .

ـ التعويض . . . نتقاسمه !

ـ اتفقنا .

ـ سجل ما قلت .

وسجل « العتر » ما أملاه القزم عليه فى ورقة بالية قدمها له « سعدون » وبعد أن مهرها بإمضائه دسها «سعدون» فى جيبه ؛ ثم انعطف الصديقان يتدارسان خطط الهجوم ويقرران تفاصيل المعركة ، وكلما شدد « سعدون » هجومه يكشف مواقع الضعف من خصمه انسرح « العتر » فى تفكير يحصى الغنم ويعد أوراق النقد وكأنها نجوم لوامع تهبط من السماء تغرقه فى بحبوحة من العيش .

وسرعان ما نال الجهد من الصديقين فانكفأ كل على صاحبه ، وما لبث أن تعالى فى الحجرة غطيط على حين لاحت تباشير الفجر فى الأفق تؤذن بمولد يوم جديد ، وقد ارتسمت على قسمات وجههما ابتسامة بلهاء تنبئ بما يتخايل فى رأسيهما من أفكار ثراء عريض .